موسوعة
المعرفة المسيحية

الحياة الرّوحيّة

٢

كَيفَ أُصَلّي؟

بقلم
الأب هنري كافاريل

نقله الى العربيّة
الأب فرنسوا نعمه اليسوعي

www.christianlib.com

دار المشرق
بيروت

www.christianlib.com

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسولي للآتين
بيروت ١٩٨٩/١٠/٣

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٩٠
دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦ - بيروت

ISBN 2-7214-4582-0

التوزيع: **المكتبة الشرقية**
ص.ب. ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

تصميم الغلاف: **جان قرطباوي**

صدر هذا الكتاب بالفرنسية تحت العنوان التالي

Henri Caffarel, **L'oraison, Comment?**
Editions «Feu Nouveau»
5, Rue Bayard, Paris 08

www.christianlib.com

موسوعة
المعرفة المسيحية

الحياة الروحيّة

٢

كَيفَ أُصَلّي؟

بقلم
الأب هنري كافاريل

نقله الى العربيّة
الأب فرنسوا نعمه اليسوعي

دار المشرق
بيروت

www.christianlib.com

علِّمني كيف أُصلِّي

إنّك تقول لي: «رغبةً اشتهيتُها أن أتعلّم كيف أُصلِّي». رغبتك هذه تسرُّني للغاية، ولكن اسمح لي بأن أدعوك إلى التساؤل عمّا يدفعك إلى ذلك.

إليك قصّة قديمة تجعلك تدرك فكرتي هذه خيرًا ممّا يفعل الإسهاب في الكلام.

كان في غابر الأيّام كثير من النسّاك يعيشون في الغابات. واتّفق أنّ أحدهم اشتهر بقداسته حتى إنّ الصيّادين كانوا يؤكّدون أنّهم رأوا الحيوانات المتوحّشة كالدبّة والخنازير البرّيّة والذئاب تتجمّع خاشعة على مدخل مغارته، فيما كان يشيد بتسابيح الربّ. ولم يعُد سكّان الوادي يدهشون من رؤيتهم في أثناء الليل، ضوءًا غريبًا يتألّق فوق الجبل حيث رجل الله مقيم.

غالبًا ما كان الشبّان في تلك الناحية يلتمسون منه أن يأخذهم بالقرب منه فيتتلمذوا عن يده. ولِمَ لا؟ ألَم يكن باقي النسّاك يعيشون مع تلميذ أم اثنين أم أكثر، يدرّبونهم على

www.christianlib.com

التأمّل؟ غير أنّ هؤلاء الشبّان جميعهم لم يحظوا بقبوله طلبهم، ما عدا واحدًا منهم.

ما كان يا تُرى سبب هذا الامتياز؟

لقد أطلَعنا عليه ذاك التلميذ نفسه بعد وفاة معلّمه بقليل، قال: «كنت في الثمانية عشرة من عمري حين عرَّفتهُ إلى ذاتي ملتمسًا منه حظوة: أن أُقيم بالقرب منه. فسألني: «لماذا»؟ أجبته: «لأنّي أريد أن أتعلّم كيف أصلّي». هذه الكلمات أشعَّت بريقًا من الحنان في عينيَ الناسك المُسنّ، وعندئذٍ قال لي: «ولماذا يا صغيري تريد أن تتعلّم كيف تصلّي»؟ فأجبته: «لأنّ الصلاة ذروة المعرفة». قال وعلى ملامحه مسحة من الحزن: «أوَدّ أن أقبلك، لكنَّ ذلك ليس باستطاعتي»».

عُدتُ إلى زيارته بعد مَضيّ ثلاث سنوات، فاستقبلني بقلبٍ أبويّ وطرح عليَّ مرّة أخرى هذا السؤال: «لماذا تريد أن تتعلّم كيف تصلّي»؟ فأجبته: «لأُصبح قدّيسًا». كنتُ مقتنعًا بأنّه سيقبلني هذه المرّة. ألم تكُن رغبتي هذه أسمى من كلّ ما يُعقل؟ لكنّه أجابني مُجدّدًا بالرفض.

فعدتُ إلى أشغال الحقل، مع أنّ رغبتي في الصلاة كانت تسيطر عليَّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وذلك يوميًّا، من الصباح حتّى المساء. وأذكر أنّي كنتُ أبكي أحيانًا، عندما كنتُ أفكّر

www.christianlib.com

في ذاك الذي كان يعيش هناك على رأس الجبل في أُلفةٍ مع ربِّه.

في إحدى ليالي الميلاد، نهضتُ بغتةً وقد تملّكني شعور أكيد بأنّه سيقبلني هذه المرّة. لدى وصولي، كان يصلّي ولم يلمحْني. فانتظرتُ وانتظرت... ثمّ رويدًا رويدًا سَكَنَ جَزَعي. ولّما الْتَفتَ نحوي، لم يَبْدُ البتّة متعجّبًا من حضوري. فبادرتُه بالكلام بحيث لم أدَعْهُ يطرح أيّ سؤال. قلتُ: «أُريد أن أتعلّم كيف أُصلّي لأنّي أُريد أن أجدَ الله». حينئذٍ فتح لي ذراعيه.

أن نجد الله: هذا هو هدف الصلاة الحقيقيّة، الذي يُكسبها قوةً لا تُردّ. وبالفعل، إنّ الله الآب لا يسعه أن يتهرَّب من ابنه الذي يبحث عنه. والابن يُدرك في نهايةِ الأمر أنّه يجب عليه ألاّ يعودَ يتهرّب أبدًا من الآب الذي يبحث عنه.

أَنْ نجدَ الله، أَنْ نشعر بتوقٍ إليه ينمو يومًا بعد يوم تحت تأثير النعمة: ما معنى ذلك؟ إنّ الذين وَجدوا الله يتمنّون أن يكشفوا لنا سِرّهم، لكنّهم يصطدمون بشيءٍ مستحيل: فلا الألفاظ ولا المفاهيم تقوى على التعبير عن اتّحاد النفس الحميم بالله. فلا يسعهم إلاّ أنْ يؤكّدوا لنا أنّ طريق الصلاة لا تُؤدّي إلى مأزق، بل تنتهي بنا إلى فسحة نيّرة، وتُفضي إلى خبرة في العيش مع الله، وأنّ هذه الخبرة تفوق كلّ وصف.

www.christianlib.com

ملاقاة المسيح

عزيزي فادي، إنّ ما كتبتهُ لي لم يصدمني البتّة ولم أستغربه. سبق أنّ كثيرين قبلك قالوا لي: «المسيح ليس حاضرًا عندما أُصلّي، فكيف تطلب منّي أن أكونَ متنبِّهًا وأن أُكلِّم غائبًا»؟

في الواقع، المسيح لا يشكِّل في نظر الكثيرين من المسيحيِّين، وخلال مدَّة قد تطول أو تقصر، إلاَّ شخصًا حدَّثهم عنه الإنجيليّون أو الأقرباء أو الوعّاظ، دون أن تكون لهم معه ملاقاة. غير أنّني على يقين من أنّه سيأتي يوم حيث يدخل المسيح فجأة أو تدريجيًّا في حياة كلّ مسيحيّ مُخلص، بصفته تلميذًا له. هذه الملاقاة الروحيّة تدشّن مرحلةً جديدة كلّ الجدّة من مراحل الحياة المسيحيّة، فتتبدّلُ الصلاة تبدّلاً جذريًّا.

ومَن يقوم بهذه الخبرة يعبِّر عنها تلقائيًّا بجملة يلتقطها من فم أيّوب البارّ: «كنتُ قد سمعتُكَ سمْعَ الأُذن، أمَّا الآن فعيني قد رأتْكَ». (أيّوب ٤٢/٥).

www.christianlib.com

خلال مطالعتي كتبًا أَلَّفها كاهن عاش في القرن التاسع عشر، الأب پِريف Perreyve، والتي لم نعُد نطالعها كثيرًا في عصرنا، عَثرتُ على صفحة جديرة بأن لا تَغرَق في بحر النسيان، وهي تتناول موضوعنا بالذات: الملاقاة بين المسيحيّ والمسيح. وهاكَ النص:

«عظيمةٌ هي في حياتنا تلك الساعة التي نِلْنا فيها الوحيَ الحيّ بيسوعَ المسيح. فمهما كان نوعُ هذا الوحي، علينا أن نباركَ الله من أجله، لأنَّه يُغيّر النفوس ويستبدل ديانةً محصورة بممارسات باردة وطاعة آليّة وعوائد روتينيّة بنشوةِ الحبّ الحقيقي وروعته.

«وغالبًا ما يقترن هذا الوحي، في قلب المُوحى إليه، بأوّل عذابٍ يختبره في حياته. لكنَّ هذا العذاب لا يزال أثمن كنز ومهما كلَّف من ثمن، يجب على مَن يَحظى به أنْ يعتبر نفسه غنيًّا جدًّا.

«إذ ذاك كلُّ شيء يتغيّر في النفس بالنسبة إلى حياتها الروحيّة: كلُّ شيء يستنير، كلُّ شيء ينتعِش ويتَّخذ حياة وحركة وواقعيّة جوهرية.

«يسوع المسيح لم يعُد في تصوّر قلبنا ذاك الرجل الكبير، المتقشِّف والبعيد، الذي يفرض الإعجاب ويُثير الاندهاش

www.christianlib.com

فالابتعاد، بل يغدو الشخص المُبتغى، الضروريّ الوجود في حياتنا، الذي يعزّي وسط خيبات الأمل ويُنهض لدى الانحطاط، الذي في الصباح يُعطي القوّة لبلوغ المساء، الذي يتفهّم ويُهَدِّئ ويغفِر. ومجمل القول إنّه يغدو ذاك الصديق المنقطِع النظير والدائم الحضور، الذي تجدُه النفسُ في ذاتها متيقِّظًا وعطوفًا، فَوْر لجوئها إلى الصمت والخشوع».

ما دامت هذه الملاقاة غير حاصلة، فالراغب في الصلاة يجد كبير فائدة ـ ما لم يُلْهمه الروح القدس توجيهًا آخر ـ في تركيز مجهوده على معرفة المسيح، بقدر ما يستطيع أن يكتسِبها، بواسطة قراءة الإنجيل والتنبُّه إلى كلمات الربّ وأعماله. عسى أنْ يكون الحافز في سعيه هذا رغبة حارّة في معرفته تعالى، وأنْ تكون هذه الرغبة بمثابة رفع دُعاء متواضع إلى الله.

إذا تمَّت هذه «الملاقاة» ـ وأُذكِّرك بأنّها قد تكون مفاجِئة أو تدريجيَّة ـ فالمسيحي الذي يُقبِل إلى المسيح يشعُر بأنّه يتوجَّه إلى شخص معروف وحاضر. هذا ممّا يدلُّ على أنَّ نوعيَّة الصلاة قد تغيَّرتْ. لم تَعُدِ التفكيرَ في شخصٍ عَرَفْناه بالسمَعِ، أو في صديقٍ غائب، بل التحدُّث إلى شخصٍ حيّ يسمع وينفعل، والنظر بحبٍّ إلى كائنٍ ينظر إليكَ بحبّ، والحضور أمام شخصٍ حاضر.

www.christianlib.com

ولكن أرجو منك أنْ تُدركَ جيدًا أنّ ما قلناه يختلف اختلافًا تامًّا عن الإدراك الحسّيّ، فهو يجري على نطاق آخر وهنا نقول على غرار القدّيس بولس: «إنّ أعين قلوبنا قد انفتحت» (أف ١/١٨).

فيما بعد، سيطرؤ على الصلاة تبدُّلات أُخرى. من الحياة الحميمة مع المسيح سيقودنا المسيح ذاتُه إلى الحياة الحميمة مع الآب، وحتّى في هذه المرحلة ستبقى ملاقاة المسيح، صراحةً أو ضِمنًا، السعيَ الأوّل.

www.christianlib.com

نَظرَ إليه وأَحبَّه

يذكُرُ الإنجيليُّون مرارًا عديدة نظرات المسيح. لّما عرَّف أندراوسُ أَخاه سمعانَ إلى يسوع، «نظر إليه» يسوع (يوحنا ١/٤٢). ولّما أنكر بطرس معلِّمه الإلهي، لم يلبث المسيح أنِ «التفت ونظر إلى بطرس فبكى بكاءً مرًّا» (لوقا ٢٢/٦١). ولّما طلب رجل تقيّ إلى يسوع أن يدلّه على طريق الحياة الأبديّة، يقول لنا مرقس، الذي يتميّز ويُبدع بتعابيره الموجزة والإيحائيّة: «حَدَّق إليه يسوع فأحبَّه» (مرقس ١٠/٢١).

حقًّا إنَّ الحبّ والنظر شريكان. لذلك يَلزمنا أن ننظر إلى الآخرين كي نحبَّهم. ويلزمنا أيضًا أنْ نُحِبَّهم كي نُحسِن رؤيتهم. ولقد قيل بصواب: «إنَّ المرءَ لا يَرى الآخرين، كما ينبغي، إلاَّ بنظر قلبه».

وبالفعل، خير ما يوحي بالحبّ النظر. ومَنْ يُنظر إليه هكذا لا ينغشُّ إذ يشعر بأنَّ كيانه كُلَّه ـ أعني كيانَه العميق وأعمق أعماقه ـ يتنبَّه ويرتعش ويُعجَب وينتفض ويحيا، تحت تأثير وقع تلك النظرة الحبِّية. ومن ثَمَّ، فإنّ حياةً جديدة لا

www.christianlib.com

عهد له بها، حياةُ حارّةَ متأجّجة نشاطًا، تنبعث فيه انبعاثًا، لأنّ نظرة الحبّ تثير الحبّ.

وما هو رائع في نظرة الحبّ التي يُلقيها الآخر إلينا لا يقتصر على ما نكتشف من روحه وحُبّه لنا، بل يتعدّاه إلى ما نكتشفه من ذواتنا. وبالفعل، هذه النظرة الحبّيّة هي «مِرآةٌ نرى فيها أنفسنا مَرئِيّين» على حدّ عبارة الكاتب لَنْزا دِيل ڤاسْتُو (Lanza del Vasto) الموفّقة.

من هذا المنطلق، إنّ للنظر تأثيراتٍ متعاكسة. ففيما بعضُ النظرات تُشعرنا بأنّنا مُحتقَرون ومُستَضْعَفون، نظرة الحبّ تجعلنا نكتشف أنفسَنا محبوبين ـ بكلّ ما للكلمة من قوّةٍ في المعنى ـ أعني قادرين على أنْ نَبعث الحبّ في قلبِ إنسان آخر. إنّ مرآةً كهذه تُطلعُنا على أنفسِنا، ولكن، ليس على طريقة مِرآة جامدة وغير منفعلة، بل من جرّاء ما نبع في هذا الشخص المحبوب من فرحٍ وإعجاب، من حبٍّ واندفاع، لدى رؤيته ما تنطوي عليه ذاتُنا العميقة، ومن جرّاء ما تكشفه لنا نظرتُه.

ومن المؤثّر جدًّا أن نكتشف هكذا ذواتِنا أهلاً لأن نُحَبّ، مؤهَّلِين لأن نفجّر الحبَّ في قلبٍ آخر تفجير النبع من الصخر. بعد ذلك، كيف لا نتصالح مع ذواتِنا. إنّ الحبَّ

www.christianlib.com

والتقدير واحترام الذات، هذه المشاعر التي قد تكون مجهولةً فينا أو على الأقلّ في أوّل بداية بروزها، والتي ظهرتْ في أكثر الأحيان مشوَّهة، تتدفّق فينا فتجعلنا نَعي فجأةً كرامتنا. ومنذ تلك الساعة نعرِف أنّ لنا مُبرِّرًا لوجودنا، إذ لنا وجودٌ حقيقيّ في حياة إنسان آخر.

لكن هناك ما هو أَروع: عندما تكون نظرة الحبّ نظرةَ مسيحيٍّ يميِّز في عمق كياننا، على ضوء المسيح، نفسَنا التي أصبحتْ ابنةً لله، كما يُميِّز اسمَنا الأزليّ الذي تَلَفّظ به الله منذ بدءِ الدهور وبه وَلَدنا في فكرته الإلهيّة قبل أن يأْتي بنا إلى الوجود، أقول إنّ نظرة المسيحيّ هذه تحمل معها ما هو مُذهِل للغاية، كَوْنَها شَفّافَةً كُليًّا لنظرة الله عينها إلينا، إذ فيها نكتشف أيَّ حبّ خَصَّنا به الآب.

إنّي متيقّن من أنّ الله يرغب في أن يتلقّى كلُّ امرئٍ، أقلّه يومًا في حياته، نظرةً كهذه.

ولكن، حتّى الذين هم أشدّ حبًّا لنا، لا يَسَعهم أن يكونوا باستمرار في حالة «فعل محبّة». فإنّ نظرتهم الحُبّيّة، أعني بالأخصّ نظرة النفس، هي أوقات محظوظة ومتقطّعة. أمّا بالنسبة إلى الله، فنحن على يقين من أنّه دائمًا أبدًا في حالة محبّة «بالفعل»، وهذا الفعل، هذا التيقُّظ المتّقِد، هو حضور حبّي مع نفسنا.

www.christianlib.com

من روائع الأمور أيضًا أن يُسَرَّ الله بنفس ولده، مهما بدا الأمر مُدهِشًا، لأنَّ نظرته الإلهيّة تلتقي في هذه النفس ما هو أقرب إلى ذاتها من ذاتها، أي أنّها تلتقي الاسم الأزلي الذي هو اسمها. ونظرة الله الحُبِّيَّة هذه هي أقوى فعاليّة من أيّ نظرة بشريّة، إذ تولّد قداسةً وتهب حياةً إلهيَّة.

ولكي تأتي هذه النظرة الخلاَّقة بمفاعيلها، على النفس أن تتقبَّلها في أعماقها بفعل إيمان، إيمانِ مَن يعترف بمحبَّة إلَهِهِ محبَّةً فاعلة، محبَّة بالفعل. وإذا كان هذا الإيمان متَّقِدًا وغير منقطع، فنظرة الله الحبِّيَّة إلى النفس لا تنفكُّ تُنميها في القداسة كما أنّ الشمس تُنضج سنابل الحقل.

فالصلاة إذًا تقوم على ما يلي: أنْ نَعي وندرك نظرة الله الحبِّيَّة إلينا، أن ننفتح بالإيمان على عمله الخلاّق والمجدِّد، عمله المؤلِّه والمُسعِد.

إذ ذاك ينبعث في النفس حبُّ الله، وتُشرق المحبّة.

www.christianlib.com

كَلِّمْهُ

منذ أسابيع قصدتُ دير رهبان حُبَساء، فاستقبلني الأب المكلَّف بالضيافة وذهب بي إلى رئيس الدير، عَبْر مماشٍ طويلة ونيّرة، فقيرة وصامتة. دخلت غرفةً جدرانُها مطليّة بالكلس، خالية من الزخارف والصور، حيث كان ينتظرني رجل متَّشح بالصمت والسكينة. إنَّه الأب الرئيس.

محيّاه يتَّسم بالخشونة فيما يطفح بالوداعة، وُداعةٍ غير حسِّيّة ومحض روحيَّة، تُلطِّف نتوءات وتجاويف وجهٍ نَحتتْه التقشُّفات. في نظرته تتناغم براءة الأطفال وحكمة الشيوخ. لقد تحدَّثنا بثقةٍ تامّة. وبلغ به الحديث إلى ذلك اليوم البعيد الذي فيه قرَّر توجيه حياته. قال: «في عهد حَداثتي، كنت أتردَّد إلى نادٍ رعويّ كبير في المدينة. وفي يوم خميس من أيّام فصل الشتاء، بعد أن قضينا طوال بعد الظهر باللعب، كلَّم الكاهن زُملائي الكبار عن الصلاة، وكانوا مجتمعين في كنيسة صغيرة. بعد الاجتماع، عاد التلاميذ إلى منازلهم وبقيت في المركز متظاهرًا بأنّي أساعد الكاهن في الترتيبات. ولكن في الواقع كنتُ أرغب في استعلامه عن شيء، إلاَّ أنّي لم أكُن

www.christianlib.com

أعلم تمامًا بأيِّ أُسلوب أعرض له الأمر.

«فيما كنتُ أكنس القاعة، رأيتُ أنَّ الفرصة مؤاتية لطرح السؤال أكثر منها في محادثةٍ وجهًا لوجه. فقلتُ له بعد تردُّد: «أبتِ، إنَّكَ تكرِّر علينا بلا انقطاع: يَلزمكم أنْ تُصَلُّوا. لكنَّك لا تعلِّمنا كيف نُصلِّي» أجابني: «أصحيح كلامك يا نبيل؟ هل تريد حقًّا أن تتعلَّم كيف تصلِّي؟ إذًا امضِ إلى الكنيسة، وهناك كلِّمهُ».

«واستأنف الأب الرئيس كلامه: «مضيتُ إلى المصلّى، وأعتقد أنّي مكثت طويلاً هناك، إذ لا أزال أذكر أنّي رجعت إلى البيت متأخِّرًا وأن أمّي وبَّختْني بقساوة. لأوَّل مرّة كنتُ قد صلَّيت حقيقةً. وأعتقد أنَّه، منذ ذاك الحين، لم أنقطع قطّ عن التكلُّم معه»».

بعد هذه المناجاة الودِّيّة، لزم الأب الرئيس الصمت. وكنتُ قد أدركتُ من نبرة صوته أنّه كان يُحيي تلك الذكرى القديمة بتأثُّر عميق، تلك الحلقة الأُولى من صلةٍ حميمة وطويلة مع ربِّه. طال بنا السكوت ولم أجرؤْ أن أقطعه لأنّي كنت واثقًا أنّه يكلِّم الله. ولا شكّ أنّه كان يشكر الباري تعالى على أنَّه التقى، في سِنّه الخامسة عشرة، كاهنًا وجَّهه على طرق الصلاة.

www.christianlib.com

أمَّا نصيحة ذلك الكاهن فلم تكن تافهة إلاَّ ظاهريًّا. لقد تبيَّن حقًّا أنَّه رجل صلاة ذو خبرة، إذ، بدلاً من شرح طويل، اكتفى بأن يجيب الفتى الراغب في تعلُّم كيفيّة الصلاة بهذه الكلمة لا غير: كلِّمه. وبالفعل، الإنسان لا يتحدَّث مع ظِلّ. عليه أن يَعي حضور الله ليكلِّمه. ولكي يعلم بما يكلِّمه، ينبغي أن يكون إيمانه متيقِّظًا وجادًّا في البحث عنه تعالى.

من جهّة أُخرى، إنَّ الالتزام باستعمال كلمات وألفاظ في صلواتنا يدفعنا إلى عدم الاكتفاء بانطباعات مائعة متقلِّبة، كما أنَّه يُرغمنا على التعبير عن أفكار وإرادات ومشاعر دقيقة. حقًّا إنَّ هذه الطريقة للصلاة جديرة بكلّ مديح ـ إذا جاز لنا أن نسمِّي طريقة تلك النصيحة البسيطة.

كثير من المسيحيّين، في أثناء القيام بصلواتهم، ينطلقون وراء أحلام مدغدِغة لكنَّها متقلِّبة، يَرْثون لمصيرهم، يستغرقون في جوٍّ دافئ من التأثيرات التقويّة المبهَمة، لكنَّهم لا يتوصَّلون أبدًا إلى ضبط أفكارهم العاجزة على التركيز. حبَّذا لو يستمعون إلى نصيحة ذلك الكاهن البسيط ويتَّبعونها؛ غير أنَّهم قد يستخفُّون به إمَّا تكبُّرًا وإمَّا كَسَلاً روحيًّا، أو يتصوَّرون أنفسَهم أكثر تقدُّمًا منه في طريق التأمُّل، أو لعلَّهم أيضًا يكرهون ما يُدعى مجهودًا.

www.christianlib.com

صديقي العزيز، لقد حسبتُ أن ليس بوسعي إعطاء جواب أفضل لرسالتك الأخيرة، من أن أُورد لك ما دارَ من حديث بيني وبين الأب الرئيس في ديره. أنت أيضًا ترغب أن تتعلَّم كيف تصلّي. إستمع إذًا إلى نصيحة الكاهن المذكور ومارِسْها عمليًا.

سيأتي يومٌ لا تحتاج فيه صلاتك إلى كلمات، وذلك عندما تصير «معلِّمًا ماهرًا» في هذه المهنة، إذا صحَّ التعبير، أو بتعبير أدقّ، بعد أن تكون النعمة قد عملتْ فيك الكثير. ولكن لا تستعجل الأمور. عليك في الوقت الحاضر أن تكلِّمه.

www.christianlib.com

تنبَّه لحضور الله

عزيزي، ما دمت لا تترك مجالاً في حياتك للصلاة، يتهيَّأُ لك أنَّ حياتك الروحيّة بلغت ارتفاعها الأقصى. وبكلمة «صلاة» أعني ما اصطُلِحَ بتسميته الصلاة العقليّة.

الصلاة العقليّة هي حديث النفس مع الله. هكذا فَهمها الآباء الروحيّون منذ القِدَم. القدّيس اكليمنضوس الإسكندري كتب يومًا ما يلي: «إنّي أتجاسر وأقول: الصلاة العقليّة هي محادثة مع الله». وفي نظر القدّيس بنديكتس: «إنّها وقت تفرُّغٍ للمعاطاة مع الله». والقدّيسة تريزيا الآبيلية تَصِفُها بأنَّها تبادل صداقة فيه نتحدَّث وجهًا لوجه مع هذا الإله الذي نشعر بأنَّه يُحبّنا. أمَّا المعلّم الروحي دومْ مرميون (Dom Marmion) فيقول فيها: «إنّها محادثة بين ابنٍ لله وأبيه السماوي بواسطة عمل الروح القدس».

إنّ لفظة «حديث» ولفظة «محادثة» قد تَدْعُوان إلى الالتباس، إذ تُوهمان أن الصلاة العقليَّة تقوم فقط على مخاطبة الله مخاطبةً باطنيَّة في حين أنَّها فعل حيوي، وهي تُلزمنا بكامل كياننا.

www.christianlib.com

هناك تعبير يُعرب كفاية ـ شرط أن نُعطيهُ كلَّ ما فيه من كثافة معنوية ـ عمّا يبذله رجل الصلاة من فاعليّة باطنيّة ليكونَ متنبِّهًا لحضور الله. إسمح لي، يا صديقي، أنْ أُذكِّرك بحادثٍ ظلَّ بدون شكّ حيًّا جدًّا في ذاكرتك.

كنتُ قد قمتُ بزيارتك. ولَّما فتحتَ الباب أعلمتني أنَّ ابنتك آمال مصابة، في أغلب الظنّ، بالتهاب في دماغها، ثمّ مضيتَ بي إلى غرفتها الغارقة في نصفِ عتمة. كانت زوجتك جالسة قرب السرير الصغير، صامتة، متنبِّهة كلِّيًا إلى ذاك الوجه النحيل، وحينًا بعد حين تُزيح عن جبين آمال، بكل لطافة ونعومة، خُصلةً من شعرها. وما إن تفتح آمال عينيَها حتّى تُجيبَها بابتسامة ـ تلك الابتسامة التي تعجز الألفاظ عن وصفها. فالأمّ، سواء رتَّبت الغرفة أو تناولت الطعام على عجل في الغرفة المجاورة، تبقى متنبِّهة لحاجات ابنتها تنبُّهًا حارًّا للغاية. فما من فلذة من كيانها ولا ثانية من ثواني حياتها إلاّ وهي مُوَجَّهة نحو ابنتها.

هذا هو شأن الصلاة، أو على الأقلّ هكذا ينبغي أن يكون: توجيه عميق من قِبَل النفس، تبادل بين روحَين يتجاوز الألفاظ ويقتضي، مع استعمال الكلام، ما يختلف عنه بكثير. ومن شأن الصلاة أيضًا: تيقُّظ وتنبّه لحضور الله

www.christianlib.com

يستقطبان الكيان كلّه بما فيه الجسد والنفس والقوى المتيقّظة كافّة.

وهل من اللّزام عليَّ، يا تُرى، أن أسترسل في الدفاع لديكَ عن قضيّة الصلاة؟ هناك أمورٌ تدعوني إلى القناعة بأنَّ القضيّة رابحة سَلَفًا، وأنَّك لستَ من أُولئك المسيحيِّين، وما أكثرهم، الذين يرفضون الإقرار بضرورتها.

في الواقع، لا أخفي عليك أنّي أشعر بوخز الضمير عندما أراني مضطرًّا إلى الإكثار من الحُجَج لأدعو أبناءَ الله إلى المجيء قرب أبيهم السماوي، إلى الانفتاح على مناجاته، إلى العيش في صِلة حميمة معه، إلى الإعراب له عن مضايقهم وآمالهم كما عن محبَّتهم ونكرانهم الجميل. أوَليس من المستغرَب أن أجد نفسي مضطرًّا إلى الإلحاح لكي تسعى كائنات عاقلة إلى معرفة مَن هو في الحياة أهمُّ وأظرف شخص؟ لكيما يحبّ أُناسٌ خُلقوا للحبّ مَن هو الأجْدَر بأن يُحَبّ؟ لكي يضع الأحرار أنفسَهم في خدمة الربّ بدلاً من خدمة عبيده؟ لكي لا يكتفي بملذّاتٍ طفيفة وسخيفة أناسٌ خُلقوا للسعادة المطلقة؟

www.christianlib.com

الله شمس. آمن بها وتعرَّض لها

لا شكَّ أنَّك في صلاتك تصطدم بعقبة كلاسيكيَّة وهي الشعور بعدم التوصُّل إلى نتيجةٍ ما وبإضاعة الوقت، أو لَرُبَّما، ومَن يعلم، الشعور بانكسارٍ خفيّ يُوهمكَ أنَك لا تقدِّم لله إلاَّ صلاةً مائعة، صلاة فارغة فراغًا لا يؤمَّل بشيء. وها قد أخذتَ تفقد الشجاعة.

هلاَّ نسِيتَ أنَّك، وقتَ الصلاة، لَسْتَ وحدك بل هناك الله وأنت. ثمّ إنَّه لا ينبغي أن تحكم على نوعيّة صلاتك بالنسبة إلى فاعليّتك وحدها. إعلَم أنَّ الله أيضًا يعمل، وقد يكون عمله أهمّ من عملك، وهذا ممّا لا ريب فيه.

عندما تستحمُّ بالشمس لا يفيدك شيئًا أن تهتمّ كيف تتدفَّأ وكيف يتسرَّب الدِفء إلى جسمك. يكفي أن تكون حاضرًا هناك، عُرضةً لأشعة الشمس. وكذا القول عن الصلاة: ليس لنا سوى التعرُّض لمن هو شمس الكون. ولكن، يبقى علينا واجب الإيمان بهذه الشمس الإلهيّة وبمفعولها. أجل، المُهمُّ في الأمر هو إيماننا. الإيمان وحده يُدرك عمل الله

www.christianlib.com

المقدّس، وهو وحده يمكّننا من الانفتاح على هذا العمل والاستسلام له.

فوالحالة هذه لا تشرع أبدًا في الصلاة قبل أن تعي أنَّ الله حاضر، وقبل أن تقدِّم له حبَّك الفاعل والفعَّال. ثمّ ثابر عليها. فبقدْر ما تثابر، الله تعالى يحوّلك شيئًا فشيئًا إلى شخصٍ آخر ويؤلِّهك.

وإذا ما دَهَمْتك تجربة اليأس، انظر إلى ما انتهتْ بالقدّيسين الأمانة في الصلاة. عند ذاك، لا بُدَّ أن تستيقظ فيكَ تلك الرغبة الشديدة التي سيَّرتْكَ نحو الله، رغبةَ الاتّحاد به اتّحادًا حميمًا للغاية.

إقرأ هذا النصّ الذي كتبه يوحنّا الصليبي. إنّه مُشجِّع حقًّا:

«تتوصَّل النفس إلى أن تكون مُفعمة كليًّا بأشعَّة الألوهة ومحوَّلة بكاملها إلى خالقها. لأنَّ الله يَهَب لها ذاته بصورة فائقة الطبيعة. بحيثُ تبدو وكأنَّها الله بالذات، وأنَّ لها ما لله، وأنَّ ما لكلّ إنسان هو ذاته ما للجميع. ويمكننا أن نزيد على ما قلناه إنّ النفس، بهذه المشاركة، تَظهر وكأنَّها أضحت الله أكثرَ ممّا هي نفس، بالرغم من أنّها في الواقع تحافظ على ذاتها البشرية، وإنّ هذه الذات مميَّزة عن الذات الإلهيّة كما أنَّ الكأس مميَّزة عن الأشعَّة التي تنيرها وتتغلغل فيها».

www.christianlib.com

نَعَم

سُعاد لها من العمر خمس سنوات. كلُّها حركة وحيويّة، لكنَّها في الوقت عينه لا تبوح كثيرًا بأسرارها. فيما كنتُ نازلاً عند أهلها، أخذني الدهش من خشوعها العميق خلال دقائق الصمت التي كانت تعقُب الصلاة العائليّة. فسألتُها مَرَّة، في أثناء نزهة قمنا بها إلى التلال المجاورة: «هل تريدين يا سعاد أن تقولي لي ماذا تصنعين عندما تُصلّين؟» أجابتني: «حَسَب»... قلت: «مَثَلاً مساء أمس، ماذا قلتِ لربِّنا قبل نهاية الصلاة؟». أجابت: «كنت أقول له «نعم» طوال الوقت».

هذه الكلمة ذكَّرتني بمناجاة أُخرى صَدَرت عن صديق لي بالغ يُدعى سليم، قال لي يومًا: «ثلاثة أحرف، هذه كلُّ صلاتي: نعم. ولكن بدون شكّ، إنّها أكثر من كلمة تنبثق من الشِفاه أو من الفكر أو من القلب. هي الإنسان كلُّه، بكيانه العميق، الذي يعبِّر عن ذاته، الذي يلتزم في حياته. إنّي أعتقد أنَّ هذه «النعم» هي أكمل جواب، من قِبَل

www.christianlib.com

الإنسان، لله. أودُّ أن يكون اسمي العَلَم (نعم)، أودُّ أنْ أُسمِّي ذاتي (نعم)».

نتساءل عمَّا يعبِّر القلب البشريّ حين يجد ذاته مدفوعًا بدافعٍ لا يُقهَر إلى القول «نعم». قد نجد الجواب في ما حدث للصبيّة ناديا، بَطَلة إحدى القصص. كانت قد أمضت نهارًا كاملاً برفقة شابّ تشعر نحوه بحبّ متزايد، ولكن لم يسبق لها أنْ فاتحته بهذا الحبّ. لدى عودتها إلى بيتها، ارتمت على سريرها مُخبِّئةً وجهها تحت الوسادة، وأخذت تُهَمْهِم مردِّدة: «آه! نعم، نعم، نعم، يا ميشال. نعم ومئة مرَّة نعم. نعم ونعم لِسِنِي حياتي كلِّها. نعم لكلِّ شيء، نعم كلّ شيء»... ثم غرزت رأسها في قعر الوسادة وتابعت: «نعم لكلِّ ما تطلبه منّي دائمًا أبدًا».

فالنَعم التي تلفَّظت بها سعاد والنَعم التي تلفّظ بها صديقي سليم تجاوُبًا مع الله، لَهُما معنى النَعم التي تلفَّظت بها ناديا تجاوبًا مع ميشال. «النَعَم» كلمة حبّ. إنّها أسمى كلمة عن الحبّ. هي الحبُّ الذي يعبِّر عن ذاته، الذي يلتزم التزامًا كليًّا ونهائيًّا.

وهي، من ثَمَّ، أسمى تعبير عن الصلاة إذ إنَّها فعل حرِّيّة خاضعة بلا قيد ولا شرط لمشيئة الله؛ كما أنَّها تعبِّر جَلِيًّا عن

www.christianlib.com

الصلاة الحقيقيّة التي لا تقوم في ذاتها على صنع شيء بل على الاستسلام لما يصنعه الله في الوقت الحاضر، وعلى ما سيصنعه لاحقًا، إنْ سلّمنا ذواتنا بدون شرط إلى سيطرته. ومن ثَمّ، فهذه اللفظة الصغيرة للغاية «نعم» تقتضي شجاعة كبيرة، لا بل حُبًّا جنونيًّا من قِبَل الذي يعرف أنّه محبوب للغاية، فلا يعود يفزع من الله. وعليه، فالأمانة لهكذا حبّ لن تكون سوى العيش، سَحابَة العمر، في استعداد دائم لقول «نعم».

هل كان صديقي سليم والآنسة ناديا يعلمان أنَّ «النعم» هو اسمٌ من أسماء المسيح؟ أَلَمْ يَقُل لنا القدّيس بولس: «لم يكنِ المسيحُ نعم ولا، وإنّما كان فيه نعم» (٢ قورنتس ١/١٩). ولفظة «نعم» بالعربيّة هي الـ «أمين» باللغة العِبريّة، هذه اللفظة الليتورجيّة المليئة غِنًى ومعاني، هذه اللفظة التي تعني المسيح ذاتَهُ في رؤيا القدّيس يوحنّا: «إليكَ ما يقول الأمين (المسيح) الشاهد الأمين الصادق» (رؤيا ٣/١٤).

أن تكون «نعم» لله، هذا أسمى ما تطمح إليه النفس المُصلّية.

www.christianlib.com

لا حياة لنا بدون صلاة

أصدقائي الأعزّاء، لا أخفي عليكم أنّي بعد أن غادرتُكم، وفي طريق عودتي إلى منزلي، لم أكن فخورًا بذاتي. كنت أقول في نفسي: «لماذا لم أتوصّل إلى إقناعهم بضرورة الصلاة؟» هذا السؤال كان يعِنُّ فيَّ عنين الزنبور المزعج في غرفة أيّام الصيف.

أن تكون الخليقة البشريّة ملتزمة بالسجود لله وتسبيحه، وأن يكون الولد ملتزمًا بتكريم أبيه، هذا أمر لا تعارضونه؛ لكنّه لم يكن يشكّل في نظركم برهانًا قاطعًا يقضي بضرورة الصلاة، بضرورة خدمة الناس، ولا سيّما الفقراء منهم والمظلومين. وكنتم تستشهدون بمَثَل السامريّ الصالح.

ولكن، هلاَّ ذكرتم أنَّ مَن علَّمنا هذا المثل هو ذاته مَن أمرنا بشدَّة أن نصلّي؟ تذكَّروا بعض الآيات الإنجيليّة كهذه:

«وقف العشّار بعيدًا لا يريد ولا أن يرفع عينيه نحو السماء، بل كان يقرع صدره ويقول: أَللَّهُمَّ ارحمني أنا الخاطئ. أقول لكم إنَّ هذا نزل إلى بيته مبرورًا» (لوقا

www.christianlib.com

١٨/١٣ - ١٤). «إسهروا وصلُّوا لئلاَّ تقعوا في التجربة». (مرقس ١٤/٣٨). «إسهروا مواظبين على الصلاة، لكي تكونوا أهلاً للنجاة من جميع هذه الأمور التي ستَحْدث، وللثبات لدى ابن الإنسان» (لوقا ٢١/٣٦). «إسألوا تُعْطَوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم» (لوقا ١١/٩). «وضرب لهم مثلاً في وجوب المداومة على الصلاة من غير مَلل» (لوقا ١٨/١). «إنَّ الله روح، فعلى العباد أن يعبدوه بالروح والحقّ» (يوحنّا ٤/٢٤). «الحصاد كثير ولكنَّ العملة قليلون، فاسألوا ربَّ الحصاد أنْ يُرسل عَمَلةً إلى حصاده» (لوقا ١٠/٢).

حبَّذا لو تلاحظون في هذه النصوص ما هي الدوافع العديدة التي من شأنها، في نظر المسيح، أنْ تُوحي الصلاة.

أمن الممكن الشكّ في موقف المسيح بالنسبة إلى ضرورة الصلاة؟ إنَّ مَثَلَه في هذا الأمر لَيثبِّت تعليمه.

لماذا تفرِّقُون بين تعاليم المسيح، بين وصيَّته في الصلاة ووصيَّته في محبّة القريب؟

لعلَّكم كنتم يومئذٍ أشدَّ تَحَسُّسًا ببراهين أُخرى هي في نظري حاسمة، إلاَّ أنّه صَرَفني عن الأخذ بها بعض الشعور

www.christianlib.com

بالخجل أو رُبَّما الحياء البشري؛ لذا أسمح لنفسي الآن بأن أعرضها عليكم:

الصلاة هي حاجة حياتيَّة كالتنفُّس والأكل والنوم وممارسة القوى الجسديّة والروحيّة. أقول حاجة «حياتيّة» إذ مَن يُهمل الصلاة ينهار.

وهذا الانهيار لا يشمل حيويّة الإنسان الروحيّة فقط، بل أيضًا كلَّ ما فيه من حيويّات. وأنتم أوَّل مَن يرفضون مفهوم الازدواجيّة في الإنسان، هذا المفهوم الذي طالما أَلِفْناه ـ ويا للأسف ـ والذي يفرِّق بين الجسد والنفس. لا شكَّ أنّكم على صواب في ذلك، ولكنْ تبصَّروا أنَّه إذا تعطَّلت وظيفة روحيّة في الإنسان اضطربت معها سائر الوظائف. مَثَلُ ذلك مثل كلّ جهاز يتعطَّل على صعيد ماديّ.

هل تكونون ممَّن لا يرَونَ أنّ الصلاة وظيفة لا غنى عنها؟ ولكن إنْ سلَّمتُم، ولو مؤقّتًا، بأنْ لا غِنى عنها، لَرُبَّما تبيَّن لكم أنَّ أمورًا كثيرة تجد لها حَلاًّ في ضوء هذا الافتراض. إليكم مثالاً: إن كان أناسٌ عديدون في أيّامنا «مختلّين» عقليًّا (هذه الكلمة وإنْ مبتَذلة، تعبِّر تعبيرًا ممتازًا عن فكرتي) ألا يعود ذاك الاختلال إلى إهمالهم وظيفة أساسيَّة وجوهريَّة في حياة الإنسان، ألا وهي الصلاة؟

www.christianlib.com

وهل نحن بحاجة إلى تعداد علامات الاختلال العقليّ؟ حسبُنا هذه الأطنان من المسكِّنات (وهي في الواقع تُباع بالأطنان) التي يَجرعُها أبناءُ عصرنا، وهذا النجاح الباهر الذي يُحرزه الدراويش ونُسَّاك الهند وكاشفو الحظّ، والمُبصِّرون وما سواهم (كفانا عبرةً ما تعرضه علينا بعض الصحف والمجلاّت من دعايات). وما القول عن المخدِّرات، وهنا لا أعني تلك الموادّ التي تُصيب الإنسان بداء الهلْس والهذَيَان وتَسلِبه عقله فحسب، بل أيضًا تلك المطالعات والمشاهد والملاهي المخيِّبة للأمل على تنوّعها، بل أيضًا تلك الحياة الهائجة هَيَجانًا جُنونيًّا التي يعيشها عدد لا يُحصى من الناس. زِدْ على ذلك تَكاثُر الأمراض العقليّة والانتحارات. وعليه، لا شيء يُقلِعُني عن قناعتي أنَّ هذه الاضطرابات تَنجم جزئيًّا عن التهاون بوظيفة حياتيَّة أساسيَّة، وأنَّ هذه الوظيفة المهمَلة هي، ولا ريب، الصلاة.

وممّا يزيدني قناعة في رأيي أنَّ البرهان المعاكِس يبدو لي أقوى وأبلغ، أعني ذاك التوازن الذي ينشأ وينمو عند الذين يصلُّون، والذي لا يشمل الروح فقط بل أيضًا الشخصيّة بكاملها وكلَّ ما في الإنسان من أجهزة. وليس من المستغرَب البتّة أنْ يتشدَّد روح الإنسان باحتكاكه بروح الله، وأنْ يقوى الجسم (وهو ليس بجانب الروح بل مجبول فيه) على استعادة

www.christianlib.com

حيويّته واتّزانه حين يتقوّى فيه الروح. فصحّة النفس رهْنٌ بالصحّة السيكولوجيّة والجسديّة، وهذا الأمر أكيد أكثر من عكسه. أعود إذًا إلى التشخيص الذي بدأْتُ به: كثير من الأمراض الجسديّة والنفسانيّة هي في بادئ الأمر أمراض النفس التي تنْقُصُها تغذية والتي انقطعت عن ينابيعها الحيّة.

لأيّ سبب، حين كنّا معًا بالأمس، تردّدتُ في اللجوء إلى الإدلاء بهذه البراهين؟ لأنّي أرى من المخجل أن يلزمني تذكير الناس بأنّهم يربحون الكثير الكثير في معاشرتهم لله.

ولكن، إنْ كان ما أقول حقيقةً راهنة، فلِمَ لا نؤكّدها؟ ولِمَ نتذرّع، لعدم تأكيدها، بأنّ هناك براهين أشرف وأنبل. من جهةٍ أخرى، إنّنا نمجّد الله حين نُعلن مجدّدًا أنّ الخليقة لا تستقيم خارجًا عن خالقها.

رُبَّ قائلٍ: إنّ شجر الغابة لا يَضْمَحِلُّ من عدم الصلاة. نعم. لكنّه لا يتهرّب من الذي وهبه الوجود، في حين أنّ الإنسان العاقل والحرّ ينقطع عن الله عندما يرفض أن يعترف بانتمائه الحياتيّ إليه، أو عندما يعترف بهذا الانتماء ولا يرضى به، أو أيضًا عندما لا ينفتح بواسطة الصلاة على الطاقات الخلاّقة.

كثيرًا ما انتقَدَ البعضُ الدكتور أَلِكْسِيس كارّل في زمن

www.christianlib.com

حياته، إذ كان يجاهر بضرورة الصلاة، معتمدا براهين مماثلة للتي سبق وأشَرْتُ إليها: (راجع كتابه: «الصلاة»...)

١ ـ إنّ الصلاة تؤثّر في الروح والجسد على نحو يبدو منوطًا بنوعيّتها وحرارتها وتواترها.

٢ ـ عندما تكون الصلاة مألوفة وجدّ حارّة، تأثيرها واضح جدًّا، وهو شبيه بتأثير غُدَّة ذات إفراز داخليّ.

٣ ـ يَحْسُن بالطبيب الذي يرى مريضًا آخذًا في ممارسة الصلاة أن يفرح، إذ إنّ الهدوء الذي تولّده الصلاة يساعد كثيرًا في معالجة الأمراض.

٤ ـ فضلاً عن الهدوء، الصلاة تؤمّن اندماج القوى العقليّة ونوعًا من ازدهار الشخصيّة.

لقد أخذ البعض على الدكتور كارّل عدم التمييز بين صعيد وآخر، كما لو كان الصعيدان الروحيّ والجسديّ بدون علاقة. كانوا يهزأُون برجل العلم هذا ويزعمون أن كلامه يذكّر بكلام أصحاب البدَع الدينيَّة الذين يتوقّعون أن تكون الصلاة شفاءً حاسمًا للمَرضى. أمَّا اليوم، فقد عاد الكثيرون عن هذا التفكير الخاطئ. وإنَّ الطبّ المتعلّق بالأمور النفسيَّة والجسديَّة يجد بعد البحث، أنَّ العوامل النفسانيّة تسبِّب أمراضًا لا تبرح تتكاثر. حتّى وإن أحرز هذا الطبّ تقدّمًا ملحوظًا، حتّى وإن تخلَّص من أحكام سابقة مادّيّة وطبيعيّة تعمل غالبًا على عرقلة

www.christianlib.com

سيره، حتّى وإن تمادى في الاستقصاء، فلا يلبث أن يكتشف أن الكائن البشريّ، إذا انقطع عن الله، أو أقلّه، إذا لم يحرص على أنْ يبقى متّصلاً بالينبوع الإلهيّ، فإنّه يتلاشى كالشجرة المستأصَلة.

لستُ ممّن يُنكر ـ معاذ الله ـ أنَّ خدمة القريب تمجِّد الله، غير أنّ الأوّليّة والأولويّة تعودان إلى السجود. أيُّ امْرئٍ لا يسلِّم بأنَّ تكريم الله وخدمته في القريب يليقان برجلٍ خالٍ من الوهن والضَنى والخمول، لا يكون عالةً، في عمل الإسعاف، على مَن هم عالة.

وما أصَحَّ هذا الكلام على صعيد العمل الرسوليّ، لأنّه متى صرتم كهنة، ماذا تقدِّمون لكافّة أولئك الجياع، أولئك البائسين، أُولئك المضطربين، إن لم تكونوا حَمَلة سعادة المسيح ومحبّته وقدرته وهدوئه اللامتناهي، وعافيته التي لا تخور.

جميع الكهنة الذين يتساءلون هل يبقى لهم في الحياة عِلّة وجود والذين يتخلّون عن الكهنوت، هل كانوا قد وصلوا إلى هذا الحدّ، لو كانوا يُصَلُّون؟ يا لَيْتَهُم يدركون كم كان الرجال والنساء يتهافتون على الكهنة لو أنّ هؤلاء من «المعلِّمين» الاختصاصيِّين في الصلاة.

وأكثر من ذلك، لماذا لا تثقون بالذين يؤدُّون شهادة حسنة

www.christianlib.com

في سبيل منافع الصلاة؟ هلاّ قرأتم بعض تصريحات من قِبَل هؤلاء الشهود؟ إنّي أختارها من رسائل بعث بها إليَّ أصدقاء لي. هؤلاء، رغم أعمالهم العائليَّة والمهنيَّة، لا يُهملون، مهما كلَّفهم الأمر، الصلاة اليوميَّة حيث يَنهلون السلام والقوّة والاتّزان. لنستمعْ إليهم:

ـ «الصلاة علَّمتني الحقيقة: في حضرة الله، كلُّ شيء يبدو بسيطًا، ويغدو من المُحال أن نكتفي بالثرثرة الفارغة».

ـ «لا شكَّ أن تركيز انتباهنا واهتمامنا على ذواتِنا يتضاءل عندما نجتهد، طوال نصف الساعة، أن نركِّزها على الله وحده تركيزًا كاملاً».

ـ «الصلاة تساعدنا للسيطرة على حياتنا، لعدم التقلُّب مع الطقس والمزاج والظروف».

ـ «إنّها تساعدني على تحمُّل نوبات غضب تنتاب زوجتي وتنتابني أيضًا».

ـ «الصلاة تضع في حياتي اتّزانًا. فهي كصالب الباخرة الذي يحفظ اتّزانها ويُتيح لها أن تظلَّ مستقرَّة بالرغم من كلِّ العقبات».

ـ «الصلاة تُعيد إلينا الثقة بذاتنا سَواءً من الناحية الجسديّة أو النفسيّة أو الروحيّة. وما ذاك سوى مكسَب خارجيّ، لكنّي لم أدَعْه يفوتني أبدًا».

www.christianlib.com

- «إنَّ نهاري يختلف تمامًا حسْبما أُصلِّي أم لا. فالصلاة تمدُّني بالسلام والفرح. ولكَمْ أشعرُ بذلك! يوم أُصلّي، أُحبُّ شغلي وأقوم به بفرح».

- «الصلاة تَسير بنا إلى تنقية أفكارنا الأخلاقيّة بصورة تدريجيَّة».

- «إنَّها تجعلنا نتبنَّى شيئًا فشيئًا مقياسًا جديدًا لتقييم الأمور».

- «بواسطة الصلاة، نتوصَّل رويدًا رويدًا إلى مَلْء حياتنا كلِّها بحضور الله».

أعزّائي، زيارتي لكم علَّمتني أن لا أعود أخجل أبدًا من الإشادة بمنافع الصلاة، وأن أُعرِّف إليها كضرورة حياتيّة، منبع توازن نفسيّ وجسديّ وروحيّ، إذ تربط الإنسان بالله تعالى.

حتّى وإن كانت الصلاة، بفرض المستحيل، لا تأتي بأيِّ منفعة نفسيّة أو جسديّة، فإنّها لا تزال أسمى نشاط يقوم به الإنسان، وأُولى مُتطلَّبات حبِّه لله، لأنَّها أفضلُ سبيلٍ إلى الإقرار بمجده والإشادة به.

www.christianlib.com

رسمٌ يدعونا إلى الصلاة

صديقي العزيز، تذكَّر ما يروي كتاب العهد القديم عن موسى الذي كان يرعى غنمه على جبل حوريب: كيف توقَّف بغتةً أمام عُلّيقة تشتعل وهي لا تحترق. لقد دنا ليراقب ذلك الأمر المدهش، لكنَّ صوتًا خارجًا من لهيب النار أوقفه: «إخلَع نعلَيكَ من رجلَيكَ، فإنّ الأرض التي تطأُها أرض مقدَّسة».

الصلاة هي أيضًا مكان مقدَّس، هي الأرض المقدَّسة حيث الله حالٌّ. هناك، الله ينتظر الإنسان، هناك سيخاطبه وقد يعانقه بحبّه المفعم حنانًا وقوَّة.

إنّ الصلاة، بصفتها عملَ الله أكثر منها عمل الإنسان، تتخطّى جزئيًّا تَقَصِّيات العقل البشري: إنّها لَسِرّ. غير أنّنا لا نتعدَّى الحدود إذا ابتغينا التعمّق في فهمها، لا بل نعتبر ذلك من أسمى المواضيع التي تستدعي البحث الفكريّ. ولكن، لبلوغ هذه الغاية، يتوجّب علينا، في حين لا ندَّعي أنّنا ننتزع سِرَّها الأعمق، أن نضع أنفسنا تحت قيادة الروح القدس

www.christianlib.com

ونتقدَّم معه في طريق الاستزادة من معرفتها، بروح التواضع والسكينة، «خالعين نعالنا من أرجلنا».

أراني مُضطرًّا إلى العدول عن إقناعك بما للصلاة من أهمّيّة، ما دمتَ مُعتنِقًا مذهب العقلانيّة ومستمرًّا في الحكم على الأمور من الزاوية الفلسفيّة المحضة. ولكن، لدى زيارتك لي، سأُريك رسمًا لذاك الشحّاذ القدّيس الذي يُدعى بُنْوا لابر (Benoît Labre). ربّما كان أشدَّ إقناعًا لك من كلامي. أمّا بالنسبة إليَّ، فلقد أثّر فيَّ هذا الرسم تأْثيرًا بالغًا ولم يزل. أراه كأنّما ينطق ويُوحي بأشياء وأشياء.

في هذا الرسم نشاهد بُنْوا يصلّي، مكتوف اليدَين، حاني الرأس قليلاً، خافض الجفنين. إنّه ولا شكّ، يطبع في الناظر إليه خشوعًا عميقًا للغاية، وهو يُشعِرك بأنّه قد أضحى غريبًا تمامًا عن هذا العالم، مختليًا كليًّا في ذاته، فيما أبواب حواسّه مغلَقة بإحكام. ما الذي يحدث في نفس هذا القدّيس التي غدت معبَدًا حميًا لله؟ لا ريب أنّ ذلك يتجاوز إدراكنا. إلاّ أنّنا نستطيع أن نستشِفَّ سرَّ هذا الخشوع من خلال الهالة الفائقة الوصف التي تشعّ حنانًا وتواضعًا فتُجلْبِبُ شخص هذا القدّيس، كما نستشفّها من خلال وجهه المستنير بنورٍ داخليّ.

وممّا لا شكّ فيه أيضًا، أنّ قلب رجلٍ كهذا لَيَعيش ويخفق لِما هو في غاية الأهمّيّة ولِما قد يشتهيه أُناس كثيرون.

www.christianlib.com

صدِّقني يا عزيزي؛ إنَّ مَن ينظر إلى هذا الرسم تأخذه الرغبة في الركوع أمام بُنْوا المصلِّي، لأنَّه واثق أنَّ الله الذي يحيا في نفسه يوجّه إليه كلمات تطوّبه وتغبِّطه، كلمات ليس أعذب من سماعها.

أجل، هذا الرسم علَّمني ما هي الصلاة، أكثر ممّا علَّمتني كتب عديدة. وقد يأتي يوم فيه يعلّمك ذلك أنت أيضًا.

www.christianlib.com

رحمةً «بالشبّوط»!

عزيزتي مريم.

كنتِ في السادسة من عمركِ وأنا في الرابعة يوم ذهب بي عمّي يوسف، المغرَم بصيد السمك، إلى البحيرة. لحسن حظّه، اصطاد شبُّوطًا ووضعه في سلّة صغيرة من قصب الخيزران كانت بقربي. وما إن انطلق من جديد بهدف مآثر أُخرى حتّى فتحتُ السلّة فرأيتُ الشبّوط المسكين يرتعش ارتعاشًا جنونيًّا وكان منظره محزِنًا. فأخذتُه بين يَدَيَّ وألقيته في الماء بلطف. أمَّا ما حدث لي بعد ذلك فتلك قصّة أُخرى.

لِنَعُد إلى صيد الشبُّوط. لماذا أُحيي فيكِ تلك الذكرى القديمة؟ لأنّكِ طلبتِ إليَّ أن أُعلِّمكِ كيف تُصَلِّين. فما أقوله أوّلاً: الصلاة هي الارتماء في الماء، في ذاك الأوقيانوس اللامحدود الذي هو الله.

سيأتي يوم، يا مريم، ولَرُبَّما كان قريبًا، تَشعُرين فيه، ساعةَ الصلاة، كأنّكِ سمكة في الماء.

www.christianlib.com

لقد خلق الله الإنسان ليحيا فيه كما تحيا السمكة في الماء.

ومَن لا يصلِّي يُشبه ذلك الشبُّوط في تلك السَلَّة: هيجانه لا يهدأ في عالَمٍ لا يشكِّل سوى سلّةٍ أكبر.

www.christianlib.com

www.christianlib.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
علّمني كيف أصلّي	٥
ملاقاة المسيح	٨
نظر إليه وأحبّه	١٢
كلّمه	١٦
تنبّه لحضور الله	٢٠
الله شمس. آمن بها وتعرّض لها	٢٣
نعم	٢٥
لا حياة لنا بدون صلاة	٢٨
رسمٌ يدعونا إلى الصلاة	٣٧
رحمةٌ «بالشبّوط»	٤٠
فهرس المحتويات	٤٣

www.christianlib.com

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للاتين
بيروت، في ١٩/آب/١٩٨٩

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٨٩
دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦ - بيروت

ISBN 2 - 7214 - 4579 - 0

التوزيع
المكتبة الشرقيّة، ص.ب. ١٩٨٦
بيروت، لبنان

تصميم الغلاف: جان قرطباوي

صدر هذا الكتاب بالفرنسيّة تحت العنوان التالي:

Henri Caffarel, **L'oraison pourquoi?**
Editions «Feu Nouveau»
5, Rue Bayard, Paris 08

www.christianlib.com

طبع بمساعدة عائلة جرجي نعمه الله عقّاد

مؤلّف هذا الكتيّب، الأب هنري كافاريل، كاهن عُرف بخبرته الروحيّة العميقة، وقد أسّس بُعَيد الحرب الكونيّة الثانية حركة خاصّة بالمزوَّجين تُعرف باسم «فرق السيّدة» ساهمت إلى حدّ بعيد في إحياء الروحانيّة الزوجيّة في الكنيسة. وهو يدير الآن بيتًا للصلاة في ترُوسُور بفرنسا.

يعالج هذا الكرّاس موضوع كيفيّة الصلاة من خلال أحاديث أدلى بها المؤلّف أو رسائل بعث بها إلى بعض أصدقائه.

ناقل الكتيّب إلى العربيّة، الأب فرنسوا نعمه، راهب يسوعيّ له خبرة طويلة في مجالات التعليم والتربية والوعظ والرياضات الروحيّة، فضلاً عن التأليف، وهو يعمل الآن في دير سيدة تعنايل (البقاع - لبنان).

مكتبة العائلة
٢,٥٠

منشورات:
دار المشرق - ص.ب: ٩٤٦
بيروت، لبنان